كيف عالج الإسلام قضية التغيير؟

(وكيف تعامل معها المسلمون؟)

عالج القرآن قضية التغيير بالتأكيد على المعاني التالية:

١- **الذاتية** : وهي أن يبدأ الإصلاح من داخل الأفراد أولا.

- بالتأكيد على مبدأ الذاتية في التغيير ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١] فالبداية هي إصلاح النفس كما مر بنا.

- وبذلك يكون القرآن قد استبعد الحلول الخارجية والحلول الفوقية.

- أما الحلول الخارجية فتتمثل في أن تثور قوة عظمى ذات مشروع حضاري مغاير من قوى الأرض في وجه الظالمين فتخلصنا من أيدي الظالمين.

إن حالة في الماضى القريب تدخلت فيها قوة عظمى لإنقاذ دولة مسلمة من بغى أخرى حتى إذا ما فرغت مهمتها وقيل لها الشكر لك.. أبت أن تخرج حتى يومنا هذا، بالطبع لأن تدخلها لم يكن شهامة أو مروءة.

ولابد أن يعي رواد التغيير ذلك ويفهموا الناس أنه وهم كبير.

- وأما الحلول الفوقية فهي أن تتدخل عناية السماء على طريقتها مع الأمم السابقة فتهلك الظالمين وتعيد الأمور إلى نصابها.. لقد كانت الأمم الظالمة فيما مضى تهلك بالصاعقة أو المطر أو الرياح أو الصرخة أو أبابيل الطير.

- أما أمة الإسلام فليس لها إلا البذل والتضحية، وهي أمور قوامها العنصر البشري والجهد المبذول.

- حتى الحلول الفوقية في الأمم السابقة كان الله يأذن بها بعد أن يستنفد الرسل كل السبل .. فهل استنفدنا كل السبل؟

وقد تمثلت الحالتان في سيرته ﷺ صاحب الرسالة الخاتمة؛ لنفهم دور السماء في عملية التغيير:

أ- الإسراء والمعراج.. كان دور السماء كاملا في تلك الحادثة فيما يتفق مع كونها معجزة .. ولكن الحادثة برمتها لا تنتمي إلى فقه التغيير بل تتعلق بقصة التكريم لهذا النبي ﷺ وافتراض ركن الصلاة ، والتجسيد الحي لبعض المعاني والفضائل التي اشتملت عليها رسالته ﷺ كتلك المشاهد التي رآها في رحلته ﷺ وكان جبريل عليه السلام يتولى تفسيرها .

ب- الهجرة.. كان العنصر البشري هو المعول (ومن فوقه عناية الله بالطبع)، لكن ولأن الحادثة تتعلق بفقه التغيير من مبدئها إلى منتهاها فقد تم التعامل معها منذ البداية على هذا الأساس:

- التخطيط الجيد باختيار الوقت المناسب للخروج.

- وتكليف من يحمل الطعام ومن يحمل الأخبار ومرشد الرحلة.

- وعندما يستنفد الجهد البشري تتدخل عناية الله (وهي التي لم تغب لحظة واحدة) كما حدث حين أوشك أمره ﷺ على الانكشاف في الغار، وكما حدث حين أوشك سراقة أن يدركه ﷺ .

- لكن تبقى الرحلة ، بحكم انتمائها إلى فقه التغيير .. تبقى والجهد البشري هو لحمتها وسداها .

٢- **الإيجابية**: وهي المبادرة إلى فعل الأمور الواجبة أو المستحبة دون انتظار التكليف.

فقد ربي الإسلام أبناءه على الإيجابية مع عدم السكوت عن الحق:

- ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾[الأعراف].

- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة:١٠٥] .. قرأها أبو بكر على المنبر ثم قال: إنكم

تقرأون هذه الآية وتتأولونها على غير معناها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعذاب من عنده » (رواه أبو داود والترمذي).

قوله ﷺ : «الدين النصيحة (ثلاثا). قيل: لمن؟ قال: لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم» (رواه مسلم).

قوله ﷺ : «لا يكن أحدكم إمعة؛ يقول إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم » (رواه الترمذي).

٣- استشعار المساءلة والدعوة إلى تحمل المسئولية :

– يشعر الإسلام أبناءه بأن كلا منهم أيا كان حجمه وموقعه مسئول عن آخرين «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته، والرجل راع في مال أبيه ومسئول عن رعيته، وكلكم راع ومسئول عن رعيته» (أخرجه الخمسة).

– فالإسلام يمهد لقضية التغيير بإشعار كل فرد بواجباته التى سيسأل عنها كما يسأل عن الفرائض التعبدية (ولاحظ أن الحديث كله يدور حول المال، وهو أمر دنيوي، ولم يتطرق إلى العبادة أو الجهاد لنشر الرسالة مثلا).

- فالإسلام يشعر الجميع أن هناك أهدافا عظيمة في المجتمع لا ينهض بها فرد أو أفراد بل المجتمع بأسره .

- وهو لا ينتظر حتى تقع الأخطاء حتى نغيرها بل يسعى إلى سد الذرائع وإغلاق المنافذ إلى الشرور والمنكرات وذلك عبر استشعار المساءلة والحض على القيام بها خير قيام.

٤- عرض القرآن منهج التغيير أو فقه التغيير من خلال مصطلحات خمسة : الاستخلاف، التوريث، التمكين ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التواصي بالحق:

أولا : الاستخلاف:

- ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾[الأعراف].

- ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾[النور].

- الاستخلاف مشتق من خلف، والخلافة ثلاثة أنواع (دوائر):

١ - خلافة عامة:

وهي اتخاذ الله الإنسان خليفة عنه في الأرض ليعمرها ويصلحها

ويسخرها في إطار طاعة الله عز وجل، فيعطر أجواءها بالذكر والطاعة والعبادة، وينشر في ربوعها الخير والتقوى والفضيلة ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾[البقرة:٣٠].

٢- خلافة خاصة بمعنى الاستخلاف:

أ - وهي تمكين الله للفئة المؤمنة في الأرض ونصره وتأييده لها، حتى تعلو وتظهر على الفئة الكافرة .

ب- وهي نوع من التتويج لجهود الإصلاح والتغيير .

ج - وهي تفتح الطريق أمام الاستخلاف، بمعنى (الخلافة العامة) كي تمضي على وجهها الصحيح.

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النور:٥٥].

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف].

٣- خلافة سياسية:

- وهي خلافة الحكم بمعنى أن يختار المسلمون من بينهم من يقوم على حراسة الدين وتدبير أمور المعاش على سنن العدل والاستقامة.

- وهى مأخوذة من خلافة رسول الله ﷺ في هذه المهام التي كان يضطلع بها في حياته.

ثانيا: التوريث:

قال تعالى:

- ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾[الأعراف].

- ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ﴾ [الأعراف:١٣٧] .

- ويتضح من خلال الآيات أن التوريث كتتويج إلهي لجهود الإصلاح وعملية التغيير قريب من الاستخلاف .

ثالثا: التمكين:

وتعني أن يجعل الله الفئة المؤمنة هي الظاهرة ولها الغلبة والعلو على غيرها.

- ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحج].

- هذا تغيير بعد التمكين يوضح كيف يصنع المؤمنون بعد تمكينهم.

- ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾[النور].

- لقد ورد التمكين هنا على نحو يوحي إما بالتزامن مع الاستخلاف فهو مرادف له مثل التوريث، وإما بالاستخلاف كمشيئة إلهية أولا يعقبها التمكين بتبعاته ثانيا.

وعلى أي الأحوال:

- فالتمكين لا يكون قبل التمحيص، والتمحيص يقتضي الابتلاء. قال الشافعي رحمه الله: «لا تمكين قبل الابتلاء».

رابعا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

- ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة:٧١]، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران:١٠٤].

- قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١١٠].

- والملاحظ في مصطلح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كمصطلح مرتبط بعملية التغيير .. من خلال الآيات السابقة ما يأتي:

١- عملية الإيجابية: ممثلة في الأمر بالمعروف كدعامة من دعائم التغيير هي سبب رئيس في خيرية هذه الأمة، بدليل تقديم المولى سبحانه لها في حيثيات الخيرية على الإيمان بالله، وذلك على اعتبار أن الإيمان بالله كان موجودا في الأمم السابقة أما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فمزية انفردت بها هذه الأمة.

٢- في قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران].

- يفترض أن تكون الأمة كلها قائمة بالأمر والنهي، ساعية إلى الإصلاح والتغيير .. وذلك إذا كانت (من) في قوله (منكم) للبيان لا للتبعيض.

- أو أن يقوم بالأمر والنهي والتغيير قطاع أو فصيل يكفي لإنجاز المهمة.. وذلك إذا كانت (من) للتبعيض .

٣- أن الاضطلاع بقضية التغيير من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على مستوى الجماعة المسلمة هو سبب قوي جدا بعد الإيمان بالله للرابطة والولاء بين المسلمين وذلك لقوله تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ

وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة:٧١].

٤- أن إسقاط التغيير من خلال إهمال فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد مر بالتطورات التالية:

أ - أغفل ضمن ما أغفل من حقائق هذا الدين وفرائضه في عصور الانحطاط فكان تركه سببا في الضعف.. ونتج عن ضعف الأمة تمكين عدوها منها وذلك بانهيار مناعتها الإيمانية وتمكن كل آفات الحضارة من هذا الجسد الذي كان يوما ما منيعا قويا فشاخت الأمة وهرمت ودب الضعف في أوصالها.

ب- دخل المحتل الكافر بلاد الإسلام فرفع شعار (فرق تسد)، وطبقه بنجاح كبير من خلال نجاحه في إلهاء كل قطر من أقطار المسلمين بنفسه وهمه الخاص وحسب.

ج - بعد تقسيم دولة الخلافة من خلال اتفاقات سايكس- بيكو ١٩١٦ ، سان ريمو ١٩٢٠، وغيرها.

د - ثم طبقه داخل كل قطر حتى صار شعار كل مسلم.. نفسي نفسي ولا شأن لي بغيري.

هـ- رحل المحتل عن بلادنا عسكريا فجاءت حركات التحرر التى بدت وبدأت وطنية ثم انتهت استبدادية قمعية شمولية، فمارست

نفس هذا المبدأ الكارثي مع شعوبها وذلك لقناعتها أن الروح الإسلامية المتوثبة ممثلة في مبدأ السعي نحو التغيير من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تمثل خطورة على بقائها، وذلك لأن هذه الأنظمة لا هي تقبل النصح والتوجيه ولا هي ترضى أن تصلح نفسها بنفسها، فليس ثم إلا محاربة كل رأس تطل لأجل التغيير .

- وفي هذا الصدد أروي واقعتين توضحان كيف نجحت أنظمة العسكر في أوطاننا ربما فيما لم ينجح فيه المستعمر الدخيل وذلك في قضية سلخ الأمة وإبعادها عن مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو سر قوتها وبقائها عصية على الاختراق:

* حدثنا صديق أن ضابط أمن الدولة في مدينته أرسل في استدعاء ابنه المتدين إلى مقر أمن الدولة وبعد سيل من التخويف والتهديد قال له بالحرف الواحد: «تستطيع أن تصلي وتطلق لحيتك وتقرأ الكتب لكن إياك والتجمعات الإسلامية.. خليك في حالك».

* غداة زيارة السادات إلى القدس، وقبل توقيع معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل، قام الكاتب توفيق الحكيم يكتب في الأهرام ويطالب السادات بترك قضية فلسطين للفلسطينيين والانشغال بما يخصنا فقط... نفس الفكرة السابقة.. (خلينا في حالنا) .

وقفة:

- إن أخطر ما في هذا المبدأ «خليك في حالك» على المستوى الفردي والجمعى ليس هدم فكرة الجماعة المسلمة فحسب، بل هى دعوة صريحة لترك الفساد والمفسدين في حالهم دون تعكير صفو حياتهم .

- مع أن عناء النبي ﷺ وصحبه وعذابات السنين الطوال لم تكن لقاء دين يقبع في محرابه وإنما كانت لقاء دين حيوي يأبى إلا أن يضبط حركة الحياة والتاريخ بمنهجه ورؤيته ويهيمن عليها ويوجهها ويسعى جاهدا لإصلاح المفسدين.

* * *

كيف تتم عملية التغيير؟

- **في عالم الرياضة يكون الفوز إما بالضربة القاضية أو بالنقاط:**

أولا: الضربة القاضية: ونعني بها ثورة أو انقلابا.

- وهذه لا يرى فيها كثير من رواد الإصلاح والتغيير- وأولهم حسن البنا - خيرا. (رسالة المؤتمر الخامس).

- غير أنه يقرر أن استمرار الأوضاع في البلاد (وقتها) دون إصلاح وتغيير من شأنه أن ينتهي إلى ثورة ليست من صنع الإخوان.

- وفي هذا المضمار قامت حركة ٢٣ يوليو، والتي تسمت فيما بعد باسم الثورة، فاكتفى الإخوان بمساعدتها والتعاون معها في الأهداف الوطنية المشتركة، مثل حراسة المنشآت الحيوية في طريق القاهرة السويس ليلة ٢٣ يوليو، ثم صاروا بعد ذلك أكبر ضحاياها .

- **والمتأمل في تاريخ الثورات يلاحظ ما يلي:**

١- أكثر هذه الثورات مضارها كانت أكثر من نفعها:

- لكثرة ما يراق فيها من دماء الأبرياء..

- ولأن أغلبها يقوم على أجندات مغايرة لمصالح شعوبها، وذلك على مستوى الحقيقة لا على مستوى الأهداف المعلنة.

- ولأن ولاءها يئول أولا أو في نهاية المطاف إلى غير شعوبها وثقافتها.

- بعضها كان يبدى أول الأمر انعطافا نحو الإسلام؛ ليفيد من رصيد الخبرة والشعبية الواسعة للحركات الإسلامية ثم ينقلب عليها بعد ذلك.

٢- أنها تقفز على سنن الحياة الاجتماعية والتدرج الطبيعي فيحدث ما يشبه الصدمات الاجتماعية بعيدة المدى .

مثال: القرارات الاشتراكية ١٩٦٢ في مصر فيما يتعلق بالعقارات والأطيان.. وما تبع ذلك من انخفاض شديد في القيم الإيجارية وتأبيد عقود الإيجار، مما أثر على حركة العقارات لأكثر من ثلاثين عاما، حيث أحجم الناس عن التأجير، فاشتعلت أزمة المساكن في القاهرة والمدن الكبرى، كما تأثرت عملية التنمية في المجال الزراعي بسبب الانخفاض الحاد في القيمة الإيجارية مع تأبيد العقود للمستأجرين، بحيث أن مالك الأرض لا يستطيع أن يستردها إلا إذا تنازل عن نصفها، فعزف الناس عن الاستثمار في هذا المجال وكان لذلك آثاره الخطيرة على الاقتصاد في مصر.

٣- أن ثقافات القائمين على هذه الحركات كانت غالبا مستمدة من المشروع الحضاري الغربي أكثر مما هي مستمدة من ثقافات شعوبها.

٤- أنها تبنت سياسات فرض الأمر الواقع في تعاملها مع الآخرين بحيث جعلت من هذه السياسات حدودا للمشروعية بذاتها.

مثال: صرح السيد حسين الشافعي النائب الأسبق لرئيس الجمهورية، وأحد رموز حركة ٢٣ يوليو، في قناة الجزيرة عندما سأله المحاور عن مدى المبرر للعنف المفرط والقسوة التي اتبعتها ثورة ٢٣ يوليو مع خصومها ومخالفيها في الرأي وموقف ذلك كله في ميزان القانون والحلال والحرام.

فكان الجواب كما يلي:

- إنهم لم ينظروا للأمور بهذا الشكل ولكنهم نظروا إليها باعتبارها ثورة وتيارا وكل من يقف أمامه فلا يلومن إلا نفسه إذا وجد هذا العنف وتلك القسوة.

القوى المعادية ودورها في الثورات التي قامت في العالم الإسلامي:

- تعتبر المخابرات الأمريكية صاحبة الولاية على أغلب الانقلابات التي حدثت في المنطقة، بدءا من انقلاب حسني الزعيم في سوريا ومرورا بحركة أو انقلاب ٢٣ يوليو بمصر (راجع لعبة الأمم لمايلز كوبلاند ـ لعبة الأمم وعبد الناصر لحسن التهامي).

- من النماذج التي تظهر البصمات والتوجه الأمريكي في التدخل انقلاب سنة ١٩٥٨ بلبنان، حيث كان يرأسها كميل شمعون الذي لم

يكن ولاؤه الأمريكى محل شك.. لكن تيار الغضب الشعبى ضد سياساته كان عاليا ، فاضطرت أمريكا إلى الترتيب والإعداد لخلعه والإتيان بفؤاد شهاب الدين.

- **فحققت أمريكا بذلك الفوائد الآتية:**

١- الشعور العام بالارتياح بعد تفريغ ضغط الغضب الشعبي ضده..

- وبديهي أن القادم لو كان مثله أو أسوأ فإن الرأي العام (الذي تختلف ثقافته وفهمه عن النخب وهي أقل حجما وتأثيرا) لن ينتبه لهذا قبل مرور وقت يكون فيه الوافد الجديد قد وطد دعائم حكمه.

٢- تفويت الفرص على التيارات الشعبية وبخاصة الإسلامية من أن تقوم هي بحركة تطيح بهذا العتل؛ لتأتي بآخر لا يستطيعون التفاهم معه.

٣- لاشك أن الدول الاستعمارية تفيد من تجاربها وتتعلم من أخطائها في هذا الشأن.

- هناك واقعتان من التاريخ الاستعماري في بلادنا ربما ساهمتا في توليد نظرية الإجهاض المبكر للثورات الشعبية وفكرة الضربات الاستباقية في العقلية الأمريكية:

- **الواقعة الأولى**: سنة ١٩٤٣ في لبنان حيث أجريت انتخابات رئاسية في لبنان قبل رحيل المحتل الفرنسى كانت طلائعها ونتائجها الأولى تبشر بفوز الشيخ محمد الخازن أحد علماء السنة.. فلم يكن بد من دخول الدبابات لحسم المسألة.

- **الواقعة الثانية**: في نفس التوقيت تقريبا سنة ١٩٤٤ في مصر حين قرر حسن البنا أن يرشح نفسه في مجلس النواب عن دائرة الإسماعيلية.. تلك المدينة التي كانت تعشق رجلا اسمه حسن البنا.. وقد حسمها الإنجليز بدخول الدبابات كما فعل الفرنسيون.

- من هنا ربما تعلم الأمريكيون أن الإجهاض المبكر أفضل.. ولا ينفي هذا لجوءهم أحيانا للطرق الأخرى .

ثانيا: التغيير بطريقة النقاط : وذلك بإحدى وسيلتين:

أ- وصول الفئة التي تحمل قيم وثقافات التغيير إلى مواقع التنفيذ بالكثافة اللازمة لإحداث التغيير.. وذلك عبر مسارات التدرج الاجتماعي والتطور الزمني الطبيعي.. وهذا هو المعول الأكبر في التغيير .

ب- اتساع رقعة المؤمنين بقيم وثقافات التغيير؛ لتشمل عناصر هى بالفعل في مواقع التنفيذ .. وهذا لا يعول عليه كثيرا في عالم اليوم لندرته .

- لأن حركة التاريخ وسنن الحياة وطبائع النفوس لا تقوم عادة على مبدأ الطفرة.

فمن النادر أن يصل إنسان إلى ذرا المناصب العليا ويتبوأ المواقع الحساسة.. ثم هكذا وبدون إعداد مسبق أو تربية طويلة الأمد يغير قناعاته، ويغامر بفقدان كل شيء.. فيعتنق ولو سرا الفكر الإسلامي الصحيح وما يتبعه من ثقافة التغيير.

وكذلك فمن النادر أن يصل أحد العناصر التي تحمل قيم وثقافات التغيير إلى المواقع الحساسة في الدولة سرا.

الضوابط الشرعية للتغيير

أ- العمدة في ذلك هو حديث رسول الله ﷺ :

«إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون منهم وتنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع. قيل: أفلا نقاتلهم؟ قال: لا ما صلوا» (رواه مسلم).

فقه الحديث:

١- وسائل الإنكار ثلاث: (القلب-اللسان- اليد) وهذا معلوم ابتداء من حديث مسلم عن رسول الله ﷺ : «من رأى منكم منكرا...».

٢- يقول ﷺ : «.. فمن كره فقد برئ » والكره مسألة قلبية فهو يعني بذلك من رفضه بينه وبين نفسه (بقلبه) وذلك إما لضعفه أو جبنه أو لأنه قوي لكن حيل بينه وبين التغيير بالوسائل الأخرى كأن يكون مسجونا.. ففي جميع هذه الحالات هو لا يحسن غير أن يبغض ما يبغضه الله .

٣- هذه الشريحة التي اكتفت بالكره القلبي أو لم تحسن غيره.. هي رغم ضعفها الظاهر ذخيرة وعدة لأصحاب المشروع الإصلاحي للتغيير.

- حيث يشكل رفضهم القلبي الصامت:

أ- أرضية بعيدة المدى لعملية التغيير .

- لأن الظروف والأحوال حين تتطور إلى الأفضل على يد طلائع التغيير.. فسوف تخرج شرائح متزايدة .. في أوقات متفاوتة منهم عن صمتها لتنضم إلى مواكب التغيير.

ب- أن بعضهم قد يمد يد العون المادي أو الأدبي لموكب التغيير سرا.

ج- أن القائمين على التغيير في مأمن من أن يؤتوا من قبل هؤلاء.

٤- الملاحظ أن رسول الله ﷺ قد ذكر درجتين من درجات النجاة:

- **الأولى**: البراءة وتترتب على الكره القلبي، وهي تعدل النجاة (أو النجاح) بالحد الأدنى عند طلبة العلم؛ لقوله ﷺ: «فقد برئ» إذ لا يبرأ المرء إلا بعد أن يكون مدانا أو قريبا من الإدانة، كالطالب ينجح بالحد الأدنى.. فنقول : كان قاب قوسين أو أدني من الرسوب .

- **الثانية**: السلامة، وتعني أن يكون المرء سليما معافى غير مدان ابتداء .. ولكن ..

- الإنكار كلمة واسعة الطيف تشمل الوسائل الثلاث السابقة (القلب - اللسان-اليد) فكيف نخصصها ؟

- إن النبي ﷺ قد استبعد منها بالضرورة الإنكار القلبي، وذلك لقوله ﷺ قبلها: «فمن كره» كما استبعد منها التغيير باليد لقوله ﷺ : «... لا ما صلوا» حين سئل: أفلا نقاتلهم؟

- بذلك لا يصبح لقوله ﷺ : «ومن أنكر» بعد استبعاد الاثنتين [الأولى لكونها الحد الأدنى اللازم توافره عند كل أحد – والثانية لإظهار الصلاة وشعائر الإسلام] معنى سوى التغيير باللسان وما في حكمه ومستواه، كالكتابة للعلماء – والكتاب وأرباب الفكر والمثقفين.

٥- أن التغيير والإصلاح من خلال جماعات ذات أهداف وخطط ووسائل هى الأجدى؛ لأن الفساد والانحراف بات هو الأصل في بلاد المسلمين.

- فليس من الحكمة أن يعتمد على الطرق الفردية التقليدية وحدها.. كما كان يرى بعض السلف سكيرا في الطريق.. فينصحوه، أو يدخل أحد العلماء على حاكم أو أمير فينصحه .. إذ أن ذلك كان يجدي حين كان الأصل هو الخير والصلاح ولأن الباطل الآن يحاربنا بالطرق المنظمة لكن ذلك لا يعني سقوط هذه الطرق التقليدية والاستغناء عنها .. وكذلك ..

- فلا زالت الخطب والدروس والمحاضرات.. ولا زال المقال والرواية الطويلة.. والقصة القصيرة والقصيدة والأرجوزة .. والأغنية والمسرحية.. والمونولوج والاسكتش.. لا زال ذلك كله من أبرز وسائل التغيير عند جماعات التغيير المنظمة.

٦- يخلط الكثيرون بين حقيقتين:

أ- رفض الحديث عن مبدأ الخروج بالقوة على الحاكم الظالم ما دام لم يمنع المظاهر العامة لأسلمة الدولة وأولها شعائر الصلاة - ولعل هذا هو السر في حرص كثير من الطغاة في عالمنا العربي والإسلامى على التغطية الإعلامية لهم وهم يؤدون صلاة الجمعة أو يتحدثون في المناسبات الدينية .

ب – نصح الحاكم ودعوته والوقوف في وجه الدعوات الفاسدة.. والتصدي للظلم بكل سبيل.

فإن الإسلام الذي منع الخروج على الحاكم الظالم المحافظ على الإطار العام لأسلمة الدولة من خلال الصلاة – هذا الإسلام لم يمنع النصح له.

– وكلما كثر الأعوان وقوي النصير كان ذلك إيذانا بتقلص معسكر الظلم وتسرب أهله وانتقالهم إلى فريق الحق – أو تركه فحسب – إما رجوعا إلى الحق وإما خجلا من أهل الحق وإما يأسا من الظلم والظالمين..

– فيصير الظالم وأعوانه الأقرب لأن يكونوا هم الفئة الباغية التي تنذر بالعدول عن باطلها أوتخلع.

*** فائدة:**

– فاتخاذ الحديث أو غيره ذريعة لترك نصح الحاكم بحجة أن ذلك خروج عليه، والتشاغل عن ذلك بأمور من نوعية كم كان طول سواك النبي ﷺ ؟ أو أن يشمت العاطس أقرب الناس إليه مجلسا أم المجلس كله؟..

– كل ذلك ليس مذهبا في الفقه بقدر ما هي مؤامرة لإقرار الظالم على ظلمه مع خذلان الدعاة ورواد مشروع الإصلاح والتغيير الذين

يحتملون صنوف الأذى في سبيل الله لأجل التغيير من سجن وتشريد وتعطيل مصالح وخلافه (وهناك شبهة في طريقة النصح سنعرض لها في موضع آخر وهي مسألة الإسرار عند النصح للظالم) .

٧- إن التغيير بهذا الشكل هو أرقى صور الجهاد وأعلاها لقوله ﷺ : «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» (رواه النسائي ، ابن ماجه، البيهقي).

- وقوله ﷺ : «سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام على إمام جائر فنصحه فقتله» (رواه الطبراني).

كنصح الحسن البصري للحجاج حتى كاد أن يقتله.

ونصح سعيد بن جبير حتى قتله... وغير ذلك كثير .

ونصح الهضيبي لعبد الناصر حتى فعل به وبالإخوان ما فعل.

* * *

شروط التغيير
«الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»

١- **العلم:** وأيسره العلم بأحكام القضايا محل التغيير .

٢- **الخروج من الخلاف:** فليس من الفقه ولا الحكمة أن يستفرغ مشروع التغيير وسعه ووسع أبنائه لتغيير أمور وأوضاع يسع أصحابها فيها رأي واحد من أهل العلم.

– لقول الشافعي رحمه الله: «أجمع أهل العلم على أن الله لا يعذب فيما اختلف فيه العلماء».

– ولكن الذي لا بأس به بديلا عن محاولات التغيير هو الحوار العلمي بشروط:

أ– أن يكون على مستوى المتخصصين – وقد تنقل نتائجه إلى الدوائر الأوسع إن تراضوا على شيء .

ب– أن يكون الحوار هادئا – سمحا – متأدبا بأدب الإسلام دون أن يجر ذلك إلى المراء المذموم والتعصب كما ينصح الأستاذ البنا رحمه الله.

٣- **دفع المنكر بأيسر ما يندفع به .**

٤- مراعاة فقه الموازنات والأولويات :

- وهو نوع من دراسة الخطأ القائم المراد تغييره ثم موازنة ذلك بالنتائج المترتبة على التغيير فإن كانت النتائج المترتبة أسوأ من الخطأ القائم أرجئ التغيير أو اعتمد في تغييره على مبدأ التدرج .

- وفيما يلي مبحث كامل عن فقه الموازنات والأولويات.

فقه الموازنات والأولويات

- إن هذا الفقه ليس مجرد فقه يحتاجه الدعاة ورواد الإصلاح والتغيير فحسب بل..

- هو من قوانين الله تعالى وسننه الكونية في تصريف الأحداث وضبط حركة التاريخ، مثل سنن التدافع .

- والأمثلة كثيرة على أن الموازنات والتدرج سنن كونية:

أ- بعث عمر بن الخطاب كتابا إلى واليه على الشام (أبي عبيدة بن الجراح) أثناء قتال الروم قال فيه يحذره المعصية: «ولا تقولوا إننا نقاتل الكافرين فلن يسلطهم الله علينا.. فرب قوم سلط عليهم شر منهم» .

- وكما سبق فهذا أقرب إلى سنن التدافع .

ب- سلط الله نبوخذنصر البابلي الوثني على اليهود المؤمنين وحملة الرسالات وقتها بمعصيتهم لله، فسامهم سوء العذاب.

ج- عندما قدم السمح بن مالك الخولاني إلى الأندلس وتسلم راية الفتح والجهاد في جنوب فرنسا وإيطاليا وتخومها .. أصاب الأوروبيين منه رعب عظيم، فشكوا ذلك إلى أحد ملوكهم فكان جوابه:

ذروهم الآن لأنهم أصحاب عقيدة وحملة رسالة هي أغلى عندهم من الدنيا وما فيها.. فلن يهدأوا حتى يبلغوها؛ لذلك فإنكم لن تقدروا عليهم الآن، ولكن ذروهم حتى يقبلوا على الدنيا وتصير عندهم أغلى من رسالتهم فسوف تمكنون منهم .

- وهذه حكمة عميقة لأنها نوع من الموازنة والتدافع في حركة التاريخ .

د - حتى أهل الباطل يفقهون هذه السنة الكونية ويوظفونها لصالحهم.. وهي مراعاة فقه الموازنات والتدرج .

- عندما علم أبو سفيان (قبل إسلامه) أن الأعشى قد ركب إلى النبى ﷺ ليسلم ويلحق به.. قال قولته المشهورة: «تبا لهذا الرجل فما مدح أحدا إلا رفعه، وما هجا أحدا إلا وضعه».

- والأعشى لمن لا يعرفه هو واحد من شعراء المعلقات اشتهر (بصناجة العرب) لأن شعره يظهر فيه بوضوح أثر الموسيقى الشعرية، ومن ثم فقد كان يحلو في الغناء على ألسنة الحداة والجواري والغلمان، وفي هذا ما فيه من الشهرة لمن يهجوه أو يمدحه.

– وهو الذي امتدح واحدا من أغمار العرب اسمه المحلق الكلابي لمجرد أنه أكرمه بأن نحر له ناقته وأطعمه منها.. فامتدحه بأبيات جاء فيها:

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار في يفاع يحرق

تشب لمقرورين يصطليانها فبات على النار الندى

– فتسامع العرب به فتسابقوا إلى الزواج من بناته بعدما يئسن من الزواج، فأيسر بعد إملاق وعلا ذكره من خمول.

– لذلك فعندما علم أبو سفيان بخبر نيته الإسلام خشى على نفسه وقومه أن ينضم الأعشى إلى كتيبة شعراء الرسول ﷺ والجهاز الإعلامى للمسلمين.. فجمع مائة ناقة من قومه ثم خرج يعترض طريق الأعشى، ودار بينهما حوار طويل فحواه أن أبا سفيان لم يقدر على منعه من الإسلام دون تدرج؛ إذ لو هاجم الرجل (النبي ﷺ) هكذا رأسا فلربما ازداد الأعشى تمسكا به.

– فقد سأله: أين تريد؟ قال: إلى هذا الرجل لأتبعه .

– قال : إنه يحرم الزنا. قال: لقد تركني الزنا وما تركته (كان شيخا كبيرا).

– وأخذ يبغض إليه الإسلام والرجل يمتنع، حتى قال: إنه يحرم الخمر. قال: أما هذه فإن في النفس منها شيئا.

وعلى الفور طرق الحديد ساخنا فقال له: وإنا معه على عهد (الحديبية) لا ندري ما الله صانع فيه، فخذ هذه الإبل المائة فأصلح بها أمرك وانتظر حتى تتبدى لك الأمور.

- ولم يزل به حتى أثناه على نيته.

- فهذا نوع من التدرج الذي هو صورة من صور فقه الموازنات (لأنه لم يقدر على منعه هكذا دفعة واحدة) أحسنه الباطل لتحقيق بعض أغراضه.

هـ- منذ سنوات بعيدة أقبلت زميلة لنا ذات جمال وأدب تسألني عن زميل تقدم لخطبتها، فاضطررت لمصارحتها أنه كان يتعاطى المخدرات ويجرى عمليات الإجهاض .

- فكان عليها أن توازن بين حاجتها إلى زوج كريم تعيش في كنفه كأي فتاة، وبين زوج وحسب تعتاش معه ولو بالحرام.. فأبت الفتاة مجرد دخوله البيت حتى أبدلها الله خيرا منه.

* * *

- وعلم أصول الفقه يراعى هذه الموازنات .. يتضح ذلك من خلال بعض القواعد الأصولية ..مثل:

- درء المفسدة مقدم على جلب المنفعة.

- قاعدة ارتكاب أخف الضررين.

- إذا تعارض الواجب مع المندوب قدم الواجب.

- إذا تعارض الواجب مع ما هو أوجب منه قدم الأوجب، كطاعة الوالدين مع إطلاق اللحية عند من يرى وجوبها.

- إذا تعارض الواجب الاتفاقي مع الواجب المختلف فيه، كطاعة الوالدين مع إطلاق اللحية أيضا .

* * *

أمثلة تاريخية على فقه الموازنات

١- في الصحيح عن عائشة عن رسول الله ﷺ: «لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لهدمت الكعبة وجعلتها على هيئتها الأولى» (رواه الترمذي).

فلما حكم ابن الزبير فعل ذلك.

هاهنا اعتباران:

الأول: ضرورة تغيير تتمثل في رد الكعبة إلى هيئتها الأولى.

الثاني: عاقبة التغيير المتمثلة في الفتنة المترتبة على التغيير، وهو ضرر أكبر للتعليل الذي ذكره ﷺ وهو حداثة عهد الناس بالجاهلية (قرب عهدهم بها).

- وقد حسم النبي ﷺ ذلك كله بإرجاء التغيير.

٢- في الأدب المفرد للبخاري عن عائشة: «أن أول ما نزل من هذا الدين شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، حتى إذا قالوها نزلت الصلاة، حتى إذا ما أدوها أمروا بالصوم.. حتى نزل تحريم الخمر والزنا، ولو كان أول شيء نزل هو تحريم الخمور والزنا لقال الناس لا نتركها أبدا».

- دل الخبر على أن فقه الموازنات قد يكون من صوره التدريج.

هاهنا اعتباران:

الأول: ضرورة التغيير المتمثلة في كف الناس عن الخمر والزنا وسائر المفاسد.

الثاني: عاقبة التغيير المتمثلة في الفتنة الناجمة عن التغيير بالطريقة التي تفاداها التشريع وهي التغيير دفعة واحدة دون تدرج.

- وتتمثل هذه الفتنة في رفض الناس الامتثال وهو ضرر أكبر .

٣- يروى أن الإمام أحمد بن حنبل وصديقا له كانا يسيران في أسواق بغداد، فأبصرا رجلين يتسابان سبا منكرا، فلما هم صاحبه أن يعود لينصح لهما نهاه الإمام أحمد، فتعجب!! فقال له الإمام أحمد: امض يا أبا فلان فليس هذا كما علمت.. يقصد أنه ليس هو مجال التغيير الذي تظنه.

فهاهنا اعتباران:

الأول: وهو ضرورة التغيير المتمثلة في وقف المنكر أو السباب الفاحش.

الثاني: عاقبة التغيير المتمثلة في اتساع دائرة السباب لتشمل من يحاول الإصلاح وربما غيره.

- بعبارة أخرى ترتب ضرر أكبر؛ لكون الرجلين أحمقين أو من السوء بمكان.

٤- استئذان عمر بن الخطاب رضي الله عنه رسول الله ﷺ في قتل ابن سلول بعد الرجوع من غزوة بني المصطلق بعد تصريحاته .

- حيث قال: «ما نحن وإياهم (المهاجرون) إلا كما قالت العرب: سمن كلبك يأكلك. وأنحى باللائمة على الأنصار؛ لأنهم وسعوهم في ديارهم وأموالهم، ثم قال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ».

- رفض رسول الله ﷺ أن يأذن لعمر بقتله وعلل ذلك بقوله:«لا تتحدث العرب أن محمدا يقتل أصحابه» .

- فهاهنا اعتباران:

الأول: وهو ضرورة التغيير المتمثلة في تنقية الصف من منافق يزرع الشك والبلبلة داخل النفوس .

الثاني: وهو عاقبة التغيير المتمثلة في الآثار المترتبة على قتل ابن سلول (الضرر الأكبر) كواحد من رموز المجتمع عند الرأي العام وشيوخ القبائل في جزيرة العرب المراقبين للمشهد العام في تلك المدينة الدولة بشريعتها الجديدة فيحجم الناس عن الدخول في الدين.

- لأن الرأي العام – ليس كالنخب والعقلاء – يرصد الظواهر ولا يعنى كثيرا بدوافعها، أو لا يستوعبها عادة .

- ونلاحظ هنا براعة النبي ﷺ السياسية المتمثلة في :

أ- الصياغة البارعة والموجزة – والمقنعة في آن واحد: «لا تتحدث العرب أن محمدا يقتل أصحابه».

– نعم فهكذا كان الرأي العام سيراها داخل وخارج المدينة.. ثم تكون النتيجة أن يفكر كل واحد ألف مرة قبل الدخول في هذا الدين.

ب- في طي كلماته ﷺ ما يفيد أنه يستحق القتل؛ لأنه لم يعلل رفضه طلب عمر بكونه لا يستحق القتل، كأن يقول مثلا: دعه يا عمر إنه مؤمن، أو إنه يحب الله ورسوله.. بل علل الرفض بالعواقب، وهذا هو فقه الموازنات في أجلى صوره.

ج- لم ينه ﷺ القصة عند هذا الحد بل صار كلما أحدث صاحبنا أمرا شكاه إلى وجوه قومه حتى صاروا هم الذين يبادرون بمعاتبته إذا أحدث أمرا.. ولعل ما فعله ﷺ بالرجل كان أبلغ من القتل الذي طالب به عمر.. وهذا ما يتضح بعد ذلك..

د- فلكي يكتمل الدرس لعمر وللمسلمين ولنا من بعدهم نراه ﷺ يداعب عمر يوما: أرأيت يا عمر لو أني أطعتك يوم أمرتني بقتله؛ لأرعدت له أنوف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته ..

– فيمتثل عمر راضيا : قد علمت أن رأي رسول الله أعظم بركة من رأيي.

٥- لما ولى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الخلافة كان من أبنائه عبد الملك، وكان نعم الرجل، فكأنه استبطأ إيقاع التغيير؛ لاعتقاده ربما أن هذا نوع من التغيير بعد التمكين فليس ثمة حاجة إلى فقه الموازنات أو التدرج وما شابه ذلك... فدار بينه وبين أبيه حوار:

- قال عبد الملك: والله يا أبت ما أبالي لو غلت بي وبك القدور في الله تعالى، فامض لما أمرك الله به.

- قال عمر : يا بني إن قومك قد أقاموا على هذا الأمر وشدوا عليه عقدة فلو ذهبت أقاتلهم على بعض ما في أيديهم لم آمن أن ينخرق فتق تسيل منه الدماء.

- فوالله لزوال أمر الدنيا أهون على أبيك من أن تسيل بسببه دماء المسلمين.

- يا بني إن الله ذم الخمر مرتين وحرمها في الثالثة، فأنا قبل أن أميت بدعة أريد أن أحيي سنة، فينفر الناس من هذه ويطمئنوا إلى تلك.اهـ.

والمتأمل للحوار الرائع بين الابن وأبيه يجد ما يلي:

أ- بين عمر واحدة من طبائع النفس البشرية كانت خافية على الابن.. ألا وهي أن النفس البشرية إذا أقامت دهرا على أوضاع

ومكتسبات فليس من اليسير أن تفرط فيها بين يوم وليلة هكذا ببساطة.. ولو لم تكن في مبدئها حقا من حقوقها .

- فالأمر يحتاج إلى تدرج؛ لأن عاقبة التغيير سوف تكون فتنة تتمثل في إراقة الدماء، وهو أمر له خطورته.

ونحب أن نوضح أن الكلام كان منصبا في أكثره على مخصصات وممتلكات أسرة الأمويين التي ورثوها عبر العقود المتتالية.

فالأمر بحاجة إلى حكمة شديدة في معالجة الأمر .

ب- تمثلت هذه الحكمة في:

التدرج الهادئ:

أنه كان يزرع فيهم قيما مثل الورع والأمانة والتعفف عن المال العام.. وذلك قبل مطالبتهم برد ما تحت أيديهم .

٦- في أوائل عقد الأربعينيات سنة ١٩٤٢، كان الأستاذ البنا ﷺ قد عزم على الترشح لمجلس النواب المصري (وهذه المرة كانت سابقة على المرة التي تدخل فيها الإنجليز بالطريقة الفجة) عن دائرة الإسماعيلية، وكان النحاس رئيسا للحكومة ولم يكن قد سمع عن البنا ودعوة الإخوان المسلمين، ولكن الإنجليز دهاة الاستعمار الغربي كانوا يراقبون الرجل بحذر شديد وقد علموا أي صنف من الرجال هو، بعد أن حاولوا شراءه بالمال وكل المغريات ففشلوا.. فأغروا

النحاس أن يحول بين الرجل وبين الترشح بأي ثمن وحذروه سوء العاقبة.

- وأرسل الرجل في طلب الأستاذ البنا ودار بينهما حوار طويل .. أبدى النحاس خلاله اندهاشه من مدرس اللغة العربية الصغير الذي يحسب له الإنجليز كل هذه الحسابات.

- وفي النهاية خرج البنا مقتنعا بعدة حقائق:

أ- أن صداما سوف يحدث في حال أصر على ترشحه .

ب- أن هذا الصدام لن يكون مصريا إنجليزيا بل مصريا مصريا؛ بين الجماعة الصاعدة والحكومة بكل أدواتها يدعمها الإنجليز من طرف خفي.

ج- ومهما يكن بعد ذلك فسوف تكون احتمالات النجاح ضعيفة؛ لأن الإنجليز الذين أوعزوا للنحاس بإثنائه عن عزمه ما كانوا ليرضوا بهذا الترشح لو حدث.

د – أن البنا وهو مفاوض بارع استطاع أن يحصل على وعد من النحاس في حال عدم ترشحه بإعطاء الجماعة مزيدا من الصلاحيات والتسهيلات، وأن يسمح لها بالتمدد والانتشار في الفضاء السياسي المصري.

- وقد أثبتت الأيام حكمة الرجل وبعد نظره.

- وفهمه العميق لفقه الموازنات والأولويات .

- وقد كان هذا الاتفاق سببا في تنامى دور وقوة الجماعة وانتشارها في القطر وتغلغلها في نسيج المجتمع وخارجه.. بينما كان الإنجليز في ملهاة بحربهم مع المحور، والأحزاب في ملهاة خلافاتها الطويلة، حتى إن الجماعة قد باتت غداة انتهاء الحرب العالمية الثانية قوة لا يستهان بها في الشارع المصري - لدرجة أن بعض رؤساء الوزراء حين كان يأتيهم التكليف الملكي بتشكيل الحكومة كانوا يستشيرون الأستاذ البنا طمعا في تأييده وتأييد جماعته ذات التأثير الشعبى و النخبوي .. **ومن الأمثلة**: النقراشي وإسماعيل صدقى - بل وفي كثير من الأقطار العربية مثل: تقى الدين الصلح في لبنان، والقاضى الكبسى في اليمن.. كذلك دور الإخوان في اختيار أول أمين للجامعة العربية: عبد الرحمن باشا عزام، بما عرف عن جهاده وتاريخه وعلو همته.

- صورة معاصرة من صور الموازنات أبطالها ليسوا الرسول المعصوم ﷺ ولا أصحابه النجوم، بل رجال من هذا الزمن.

٧- في مطالع عقد التسعينيات من القرن الماضى أصدر الدكتور يوسف القرضاوي فتوى بجواز ظهور المرأة في بعض الأدوار السينمائية إذا كانت:

أ- محتشمة .

ب- أمنت منها الفتنة.

– وقبل الاستطراد في فتوى د. القرضاوي نروي القصة التالية من أرشيف الإخوان، على اعتبار ما لها من علاقة بموضوع الفن أيضا:

– ذهب الأستاذ البنا يوما إلى أحد البنوك لفتح حساب أو ما شابه لأمر يتعلق بالدعوة.

– فلما دخل على مدير البنك، وكان يجلس في مواجهته (مواجهة المدير) الممثل المعروف أنور وجدي .

– فلما أبصر مدير البنك الأستاذ البنا قطع حديثه مع أنور وجدي ورحب بالأستاذ البنا وهش له قائلا: أهلا أهلا حسن بك .

– فاستدار الأستاذ أنور وجدي ليجد نفسه أمام الأستاذ، فحياه بدوره وصافح الأستاذ البنا الرجلين .

– وعلى الفور قال الأستاذ أنور للبنا: والله يا حسن بك أنا راجل مسلم وعارف ربنا لكن أنتم زمانكم بتقولوا علي كافر.

– فنفى الأستاذ أن يكفر الإخوان مسلما بأي حال.

– ثم عرج على الفن فقال لأنور وجدي: بالعكس، فالمفروض أنك تقوم من خلال الفن بتعليم الناس وتوجيههم إلى الخير والفضيلة..

فأنت لو نجحت في مهمتك أفضل منا وأقدر، ولو أحببت أن تشرفنا في المركز العام لتشرب معنا فنجان قهوة ونتحدث في ضوابط الفن الراقي فإن ذلك سيسعدنا. انتهت القصة.

– إن عمر الفن السينمائي والتمثيل عموما الآن أكثر من قرن، فمن العبث الظن أنه يمكن أن يلغى بفتوى.

– ولكننا نشجع كل من يعمل في هذا المجال أن يحسن اختيار الدور ويحسن الأداء ونبين لهم الضوابط، ولا نعسر عليهم ما استطعنا إلى ذلك سبيلا .

– ثم نتوجه إلى المشاهد لنرقى بذوقه ونسمو به ونحضه على اختيار الفن الجيد ونبذ الفن الهابط الرديء؛ لأن كثيرا من الفنانين يتفقون معنا في مبادئ الفن الراقي، ولكنهم يعللون تجاوزهم أحيانا بأن هذه هي مطالب الجمهور.

– وفي هذا الشأن قصة طريفة مؤداها أن أحد علماء الأزهر الأجلاء دخل محلا للعصائر في القاهرة، فلفت نظره بعض الصور الخليعة، فلما فاتح صاحب المحل تعلل بأن الزبائن تضطره لذلك لأنها تحب هذا اللون .

– فما كان من الشيخ إلا أن خرج أمام المحل، وصار كلما أبصر أحدا يهم بدخول المحل، وخاصة النساء المحتشمات، فإنه كان يعرض عليهم وعليهن القصة ويطلب التعاون معه لتغيير هذا الوضع الشاذ من خلال أن يبدى كل من يدخل من الرجال والنساء خاصة ملاحظته على الصور.

- وكانت النتيجة أن رفعت الصور !! وانتهت القصة .

- إن نموذج السينما الإيرانية، وقد شاهدت بعض أعمالها، التي حصدت الكثير من الجوائز العالمية مثال يحتذى من حيث جودة المضمون وحسن العرض والبعد عن الابتذال والملل.

خاتمة في فقه الموازنات:

- قد لا تكون المسألة غلبة الظن باتساع المنكر بقدر ما هي رهبة الموقف أو المواجهة.

- وفي هذا يقول ﷺ : «ألا لا يمنعن رجلا خشية الناس أن يقول بحق إذا علمه فإنه لا يباعد من رزق ولا يقرب من أجل أن يقال بحق أو يذكر بعظيم» (رواه الترمذي وأحمد).

- فالضابط في حالات التغيير الفردية هو ورع الداعية مع عقله الذي يقيم ويوازن بين الأخطاء القائمة والمشاكل المحتملة.

- وقد لا تكون هناك مشاكل محتملة ولكنها كما بينت تحتاج إلى قدر من الشجاعة ورباطة الجأش مع الحكمة، **وأذكر في هذا الصدد واقعتين:**

أ - واجه ابن تيمية قازان ملك التتار الذين كانوا قد بدأوا يدخلون الإسلام دخولا مشوبا بوثنيتهم في البداية .

– واجهه ابن تيمية بالنصح وأغلظ عليه فقال: «إن جدك الكافر «هولاكو» لم يرق من الدماء مثلما أرقت مع أنك تزعم أنك مسلم».

– فألقى الله تعالى في قلبه الهيبة من ابن تيمية وتساءل: من هذا الرجل؟! إنني لم أر أثبت منه جنانا!! فقيل له: هذا شيخ الإسلام ابن تيمية. فصنع له ولمن معه – على عادة الملوك – طعاما ثم دعاهم إليه فتقدموا ولم يتقدم ابن تيمية، فتساءل قازان عن السبب فأجابه:

– وكيف آكل وهذا مما سلبتموه من شياه الناس وأنعامهم وقد طبختموه بما قطعتموه من الأشجار؟!

– فازداد الرجل إعجابا به وقال له:ادع لي يا شيخ .

– فرفع ابن تيمية يديه يدعو وقازان يؤمن..

– وكان من دعائه : «اللهم إن كان عبدك هذا قد خرج يقاتل لتكون كلمتك هي العليا فملكه البلاد والعباد، وإن كان قد خرج يقاتل رياء وسمعة فدمره وزلزله».

– قال راوي القصة –وكان يجلس بجوار ابن تيمية– : فلملمت ثيابي مخافة أن يصيبها من دم ابن تيمية .. لأنه ظن أن صبر قازان سوف ينفد أمام جرأة ابن تيمية المتكررة ، لكن شيئا من ذلك لم يحدث، وخرج الرجل مشيعا بالحفاوة والتكريم.. غير أن أصحابه رفضوا

العودة معه من طريق واحد بعدما أوشكت رقابهم أن تطير بسببه حسب رأيهم.

- قال راوي القصة:

- «فلم يمض ابن تيمية بعيدا حتى خرج إليه جماعة من أمراء وقادة جيش قازان يتبركون به ويستفتونه في أمور دينهم.. فبعد أن كان وحده إذا به يصل إلى بيته مشيعا بالحفاوة والتكريم في ركب من أكثر من ثلاثمائة فارس وأمير..

- قال الراوي: أما نحن فلم نمض بعيدا حتى خرج علينا جماعة من اللصوص فشلحونا (جردونا من كل ما معنا)»اهـ (القصة كما وردت في كتاب ابن تيمية لأبي زهرة).

- وإذا تركنا ابن تيمية الذي لا يقدر كل أحد أن يكون مثله إلى واقعنا الذي يعج بكثير من الأخطاء التي لا تحتاج إلى أكثر من كلمة طيبة أو توجيه هادئ فندعها متذرعين بالخشية من وقوع مشاكل أو ضرر أكبر ، وأننا ربما نعمل من خلال جماعة لها خطط ووسائل تعمل على اجتثاث ظواهر الفساد من جذورها فلسنا بحاجة إلى محاولات قد لا تنجح .

ب- أذكر أنني منذ سنوات كنت أركب الحافلة (الأتوبيس) مع الوالد الكريم، وكان جهاز الفيديو يعرض فيلما عجيبا مليئا

بالإسقاطات البذيئة والتلميحات الشاذة، ومرت دقائق خلتها دهرا لثقلها ، حزمت بعدها أمري ثم استأذنت الوالد الذي حاول أن يثنيني إيثارا للسلامة، فأفهمته بأنني بهذه النصيحة أريد أن أخرج عن دائرة الشياطين الخرس وباب الساكتين عن الحق، وأنني لا أنتظر نتيجة وقد تعلمت منه أن:

على المرء أن يسعى في الخير جهده ... وليس عليه إدراك المطالب

– ثم قمت إلى السائق فكلمته كلمات قليلة احتسبتها عند الله وقد غلب على ظني أنه لا يستجيب .

– ولدهشتي سارع الرجل بالاستجابة.. ورأيت الناس يتنفسون الصعداء، وسمعت منهم كلمات الاستحسان.. وكأنهم كانوا فقط بحاجة إلى من يبادر ويزيل عنهم حاجز الرهبة والسلبية .

شبهات حول ضوابط التغيير

– هناك أمور ألحقت خطا على ضوابط (شروط) التغيير (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وهي:

١- التجسس:

– ليس شرطا .. بل لا يصح وسيلة لتحديد المنكر المراد تغييره .

أ– لقوله ﷺ : «من رأى منكم...» فلابد أن يكون المنكر ظاهرا للعيان لا يفتش عنه ولا يتوصل إليه بالوسائل المرفوضة كالتجسس .

ب- واقعة تسلق عمر الدار على قوم اتضح أنهم كانوا يشربون الخمر حيث قيل له:

- إننا ارتكبنا منكرا واحدا، وهو شرب الخمر، أما أنت فارتكبت ثلاثة: (التجسس، الدخول بغير استئذان، الترويع).. فأذعن عمر.

- استثني العلماء المعاصرون أحوالا تتواتر فيها الأنباء وتتوافر الأدلة على وجود قوم يجتمعون في الخفاء لممارسة أعمال تضر بالمجموع العام من أبناء المجتمع، مثل: (تزييف العملة ، الدعارة ، تهريب المخدرات، التخابر مع دول معادية).

- ففي مثل هذه الحالة تستأذن النيابة العامة في مهاجمة المكان واتخاذ اللازم بشروط:

- جدية الأدلة والتحريات.

- عدم ترويع أحد أيا كان .

- عدم التوسع في الإيقاف والاعتقال خارج دائرة الاشتباه .

- الإطلاق الفوري لسراح كل من تبرئه التحقيقات الأولى.. حتى ولو صار مطلوبا بعد ذلك على ذمة القضية.

٢- إذن ولى الأمر :

- ترى بعض الآراء الشاذة اشتراط إذن ولي الأمر لممارسة حسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- وولي الأمر هذا الذي يسعون إلى موافقته:

أ- إما قائم بالفرائض منفذ للأحكام، فمثله يحتاج إلى من يعاونه في هذا الباب، فليس ثمة مشكلة .

ب- وإما قائم على الظلم متغافل عن المنكرات فلا ينتظر من مثله الموافقة.

- غير أن الحسبة لابد لها من هيئة مستقلة عن السلطة التنفيذية تضبط عملها بضوابط الشرع وأن يحسن اختيار عناصرها وتربيتهم وتوجيههم على يد علماء أفاضل .

- حصل الأستاذ فريد عبد الخالق (٩٤سنة) أحد القيادات التاريخية للإخوان وعضو مكتب الإرشاد الأسبق للجماعة على درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة في نوفمبر ٢٠٠٩، وعنوانها: «الاحتساب على ذوي الجاه والسلطان»، وموضوعها: «حق الرعية في إبداء الرأي والنصح للقيادة السياسية، وضرورة نزول القيادة السياسية على إرادة الجماهير».

٣- الإسرار عند النصح للحاكم أو المسئول:

- المقصود: أن يسعى العالم أو الداعية لأن ينفرد بالحاكم ثم ينصحه على هذه الحالة المنفردة سرا، فإن امتثل وإلا فقد أدى ما عليه.

- المستند الشرعي (الدليل): حديث النبي ﷺ : «من أراد أن ينصح لذي سلطان فلا يبدله علانية ولكن ليأخذ بيده فيخلو به فإن قبل منه ذاك وإلا كان قد أدى الذي عليه». (رواه أحمد، وصححه الحاكم، واعترض الذهبي على تصحيحه) .

- وللدكتور المسعري (من علماء المملكة السعودية) المآخذ التالية على الإسناد، منقولة عن موقعه على الشبكة:

١- جهالة عمرو بن إسحاق بن زبريق.

٢- ضعف إسحاق بن إبراهيم بن زيريق الشديد.

٣- لين عمرو بن الحارث.

٤- لين الفضيل بن فضالة.

٥- الانقطاع بين الفضل وابن عائذ.

٦- الانقطاع بين ابن عائذ وجبير.

٧- الانقطاع بين جبير وكل من عاصم بن غنم وهشام بن حكمي.

* **خلفية**: يتبني الآن هذا الرأي بعض علماء المملكة السعودية وبعض التيارات الموجودة بمصر التي ترتبط بهم وتعتبر كثير من آرائهم الفقهية صدى لآراء هؤلاء.

الاعتراض على اشتراط الإسرار :

١- قد تبين من عرض د. المسعري حالة الحديث وإسناده .

٢- لا نعترض على النصح بالحسنى للحاكم، والإسرار لو أمكن، فلا نرفضه ولكن كم يتسنى للعلماء والمخلصين ورواد التغيير أن ينفردوا بهؤلاء، هذا إن أذنوا لهم بالدخول عليهم ابتداء، هؤلاء لا يسمحون لأحد أن يدخل عليهم سوى بطانتهم ومن تعداه فلابد أن يمر أمره وشأنه على أجهزة الأمن المتعددة.

- وفي النهاية لا ينفرد أحد بهم البتة.

- وكلنا يعلم ما عليه أكثرهم من الكبر وسوء الخلق والتعلل بالانشغال بمصالح الدولة وعظائم الأمور بحيث لا يسمحون لأحد بمقابلته، خاصة من العلماء والدعاة المخلصين، فضلا عن الانفراد بهم، وبالأخص إذا علموا أنهم قد قدموا عليهم لأجل النصح.

- إن فكرة الانفراد هذه تبدو الآن مستحيلة أو مضحكة، وبالتالي علينا أن نترك قضية التغيير حسب الحديث، وننشغل بأحكام الطهارة والحيض والنفاس.

- حدثنا بعض الثقات أن أحد العلماء الكبار في مجاله، وهو يساري التوجه (يعني يتكلم فقط بالأرقام والنظريات.. فلا قال الله ولا قال الرسول) قد دعي إلى لقاء مع رئيس دولته ضمن لقائه ببعض العلماء

والمفكرين.. فطلب الإذن بالكلام، فأذن له، فانتقد بكل أدب سياسة الحكومة وجوانب معينة، واقترح على الحاكم حرصا على وقته أن يقدم له بعض أفكاره وآرائه مكتوبة في أوراق.. فإذا بالحاكم يعترض غاضبا: خلي أوراقك معك فلست بحاجة إليها وأنا أفهم أكثر منك وأنت متطرف!!

- فكأن اشتراط الإسرار بهذا الشكل تعجيز أو نسف لفكرة الإصلاح والتغيير من أساسها.

٣- إن أنظمة الحكم الحديثة تشتمل على لجان ومؤسسات ووزارات ومجالس نيابية .. ورواد التغيير يقدمون البحوث والدراسات المستفيضة التي لا تهاجم أشخاصا وإنما تنقد أوضاعا وسياسات .

٤- وحتى الرسائل والمكاتبات لا تصلح بديلا؛ لأنها لابد وأن تعرض أولا على المساعدين والأمناء.

- الذين يشفقون عادة على الحكام من قراءة ما لا يسرهم.

- أو لأنهم لا يعرضون عليهم إلا ما يستحق من وجهة نظرهم .

- أو حرصا منهم ألا تتغير الصورة أمام أعينهم عما رسموه لهم.

- روت الصحف مؤخرا أن رئيس الديوان الخاص بالحاكم في إحدى الدول العربية نبه على الحاشية قبل أحد الاجتماعات المهمة بعدم ذكر ما يغضب الحاكم.

- فإذا كان هذا هو الحال مع الحاشية والمقربين فكيف بعامة الناس؟!

٥- النماذج التاريخية كلها لسلف الأمة ، وهم أتقى لله منا وأفهم لدينه ، جاءت خلاف ذلك.

بمعنى أنها كانت على الملأ .. والأمثلة كثيرة:

أ- نصح العز ابن عبد السلام للظاهر بيبرس وإغلاظه له وإبطاله ولايته وولاية جميع المماليك حتى يعتقوا أنفسهم بمبالغ طائلة تلقاها العز نيابة عن الأمة ثم أودعت بيت مال المسلمين.. حتى عرف ببائع الأمراء .. فهل كان هذا سرا ؟

ب- مهاجمة الحسن البصري للحجاج ، وإغلاظه له أمام الناس، حتى كاد أن يقتله، لولا أن صرفه الله بقدرته.

ج- نصح أبي مسلم الخولاني لمعاوية (في خلافته) أمام الناس في المسجد بألفاظ قد نراها اليوم خشنة قاسية .

د- نصح الثورى للمنصور في مجلسه: (اتق الله فقد ملأت الأرض ظلما وجورا).

هـ- نصح الغزالي لسنقر بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي .

و- نصح ابن تيمية لقازان أمام الجميع بالألفاظ القوية التى أوردناها .. فهل يزعم أحد من هؤلاء أنه أعلم أو أتقى لله من هذا

الشيخ رحمه الله ؟ أم أن تراث ابن تيمية لا يعنى عند البعض سوى: مجموعة الفتاوى، رسالة الفرقان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن، وتحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد، ومجموعة التوحيد وما شابه؟!

ز- نصح الهضيبي لعبد الناصر في بعض الأمور، وأخطرها اتفاقية الجلاء التي أبرمها منفردا مع الإنجليز بشروط مجحفة لمصر، في وقت كان الإنجليز قد أجمعوا فيه على الرحيل نتيجة أعمال الفدائيين في قناة السويس .

ح- نصح التلمساني للسادات:

هاجم السادات التلمساني والإخوان في مجلس نقله التلفاز على الهواء بتهم من نوعية إفساد الشباب -وهم منها براء- فكان رد التلمساني: لو أن أحدا ظلمني فسوف أشكوه إليك، أما وقد ظلمتني فإنني أشكوك إلى الله. ثم حين طلب منه السادات أن يسحب شكواه أمام الله؛ لأنه حسب زعمه يخاف الله، قال له: لقد شكوتك إلى عادل ولم أشكك إلى ظالم.. لذلك فلن أسحب شكواي أمام الله، وبدلا من ذلك ابحث عن علاج للألم النفسي الذي سببته لي بهذه الاتهامات .

٦- لو كان هذا كله سرا بالله عليكم فكيف وصل إلينا؟

٧- النصح سرا في جميع الأحوال لا معنى لـه سـوى رضـا العلـماء بالمظالم والمفاسد القائمة وإقرار الظالم على ظلمه.. وهذا بلا شك يفـت في أعضاد الناس ويخذلهم ويقوي شوكة الظالم .

٨- قوله ﷺ : « أفـضل الجهـاد كلمـة حـق عنـد سـلطان جـائر» (أخرجه النسائي وابن ماجه وأحمد والبيهقي)، «وسيد الـشهداء حمـزة ورجل قام إلى إمام جائر فنصحه فقتله» (أخرجه الطبراني).

- أفادت أن الذي ينزل منزلة أفضل المجاهدين، أو أفضل الشهداء لابد أنه قد عرض نفسه للمخاطر الجمة.. فهل هذه المخاطر تختـزل في كلمات رقيقة يهمس بها واحد من أهل الحق في أذن حاكم؟!

خاتمة الباب:

- إن القوة والعزيمة في الدين عند الـبعض تعنـي تتبـع العـزائم في الأحكام الفقهية كاللحية والنقاب.

- أما مـوالاة الظـالمين مـن الحكـام الـذين يوالـون الـذين كفـروا ويعادون إخـوانهم الـذين آمنـوا، وتعطيـل أحكـام الـشريعة، وخنـق الحريات، واعتقال الشرفاء، واغتصاب الحكم رغـم إرادة الـشعوب، فكل هذا ربما كان من أمور السياسة التي لا شأن لنا بها وكأنها لا تعنينا ولا تطالنا، أو أن نصحهم يعد خروجا عليهم.

- وغاية ما سمعت من رواد هذا المبدأ: «أن افتحوا لنا قنوات مع الحكام وسوف ننصح لهم» .

- ولا أدري كيف يأذن الظالم -الذي يعلم علم اليقين أنه ظالم- للعلماء أن ينقدوه وينصحوا له؟!

التغيير بعد التمكين

- هناك تداخل وتشابه في وسائل التغيير في المرحلتين قبل وبعد التمكين .

- **فعلى سبيل المثال**: مراعاة فقه الموازنات والتدرج موجودة في المرحلتين قبل وبعد التمكين.. راجع قوله ﷺ : «لولا أن قومك حديثو عهد...» وهذا كان بعد التمكين، وقصة عمر بن عبد العزيز مع ولده... وهذا كان بعد التمكين.

- لكن تبقي هناك اعتبارات وأمور لا يمكن الخوض فيها غالبا قبل التمكين، مثل جهاد الكافرين وما يتعلق بذلك من أحكام، كوسائل لتغيير الواقع عند غير المسلمين.

- هناك حالات معاصرة، مثل جهاد الإخوان في فلسطين، القناة، أفغانستان، البلقان، .. لكنها تبقى استثناء على الأصل يسعى الكافرون والظالمون لعدم تكراره .

أما تغيير الواقع عند غير المسلمين قبل التمكين فوسائله اليوم تتمثل في:

- حسن عرض الإسلام بكل السبل المتاحة - إيفاد العلماء والدعاة - ودعم المراكز والهيئات والجاليات الإسلامية في الخارج في حل مشاكلها، ومساعدتها بكل السبل كي تتمكن من عرض الإسلام على الناس في هذه البلاد.

- الملاحظ أن في العالم الإسلامي الآن تمكينا جزئيا أو بوادر تمكين، يتمثل في عدة مظاهر:

أ- مشاركة الإسلاميين أحيانا في حكومات (وزارات) في بلاد مثل: (ماليزيا - إندونيسيا - تركيا - الأردن - السودان - الجزائر - اليمن..).

ب- مشاركة الإسلاميين في مؤسسات المجتمع المدني، مثل: المجالس النيابية - المجالس البلدية - اتحاد الطلاب - النقابات المهنية - نوادي هيئات التدريس - نوادي القضاة- مجالس إدارات المؤسسات والجمعيات الأهلية - لهذه الهيئات جميعا ميزانياتها وصلاحياتها التي يتصرف فيها الإسلاميون الذين فازوا بثقة جموع الأعضاء وأتوا إلى المجالس عبر صناديق الانتخاب .

– فهم على سبيل المثال لا يودعون أموال نقاباتهم ومجالسهم في البنوك الربوية ولكن يوظفونها على الوجه الأكثر نفعا لأصحابها والأوفق لمنظومة القيم والثقافات التي يدينون بها.

– وهم على سبيل المثال عندما ينظمون أنشطة اجتماعية وثقافية (كالرحلات– المصايف– المؤتمرات – المحاضرات– المعارض) فإنهم يديرونها وفق سنن العدل والاستقامة – وقد أثبتت هذه الأنشطة بالطرق التي تدار بها أنها حازت رضا وثقة المجموع من المنتفعين بها.

– وهذه كلها صور مجتزأة للتمكين؛ إذ أنهم يديرون هذه الهيئات والمجالس على النحو الذي يرضي ويحقق النفع للناس كما لو كانت دولا صغيرة.

ج– في العالم الإسلامي الآن نموذج لدولة إسلامية .

– وهي وإن كانت شيعية ، إلا أنها تعتز بعقيدتها ، واسمها الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

– تفرض على المجتمع الدولي احترامها.

– تجهر ويجهر حكامها بالعداء لإسرائيل وضرورة التخلص منها وعودة الحق السليب إلى أصحابه.

– تمتلك أسلحة .. وتسعى إلى امتلاك المزيد لتحمي نفسها .

– تتعرض لمؤامرات من هنا وهناك فتنجح حينا وتخفق حينا.. لكنها تبقى نموذجا يبعث على الاعتزاز والأمل في هذا الدين.

منهج الإسلام في تغيير الواقع عند غير المسلمين

- كان الفاتحون الأوائل من الصحابة والتابعين ومن بعدهم.. حين انتشروا في الأرض لنشر الرسالة التي أمروا بتبليغها لتغيير الواقع الشركي عند الأمم إلى الإسلام.

- كانوا يضعون نصب أعينهم دائما النصائح الغالية لرسول الله ﷺ والراشدين من بعده، والتي تتلخص في:

١- عرض الإسلام على هذه الأمم ودعوتهم إليه، فإن أجابوهم، وهذه هي أسمي المطالب وإلا .

٢- فهم أحرار فيما يعتقدون.. ولكن:

- عليهم أن يعترفوا بالأوضاع الجديدة وأولها أن صار للإسلام دولة ترفرف عليها راية التوحيد وأن الدولة الجديدة تبسط سلطانها وهيمنتها على الكل مسلمهم وكافرهم.

- وعلامة هذا الاعتراف مبلغ تافه يدفع كل عام اسمه الجزية، ويجوز للذميين أن يدفعوا بدلا منه الزكاة باختيارهم أسوة بالمسلمين، كما فعل بنو تغلب قبيلة (عمرو بن كلثوم) على عهد عمر رضي الله عنه، فإن

أدوها وإلا فلا معنى لرفض أداء الجزية سوى عدم الاعتراف بدولة الإسلام .. يعني العداء وإعلان الحرب ومن ثم:

٣- القتال:

جوهر نظرية الجهاد في الإسلام (حسب سيد قطب والمودودي).

- يهدف الإسلام إلى إرساء السلام في الأرض على أسس من العدالة المطلقة والخير الشامل للإنسانية كلها وإلا فالجهاد هو الداعم لتحقيق ذلك كله عبر الخطوات التالية:

أ - إسقاط الطواغيت الذين يحولون بين الناس وبين الاختيار الحر للعقيدة التي يرتضونها .

- نلاحظ أن رسول الله ﷺ بدأ بعد موسم الحج للعام السادس الهجري في إرسال الكتب والرسائل إلى ملوك الأرض وعظمائها يدعوهم إلى الإسلام، فكانت كثيرا ما ترد هذه العبارة: «أسلم تسلم، وإلا حملت وزر الأريسيين جميعا..» والأريسيون في أحد الوجوه هم الفلاحون، وفي وجه آخر هم أتباع أريوس، وهي طائفة نصرانية ظلت متمسكة بعقيدة التوحيد وأقامت تنتظر ظهور النبي الذي بشر به المسيح.

وعلى هذا الوجه فالمعنى واحد كالذي سبقه؛ لأن الملوك في هذه الحالة سيحملون أوزار هؤلاء، إذ أنهم قد حالوا بينهم وبين تعريفهم

بظهور النبي الذي ينتظرونه. ويقصد بهم الأتباع والضعفاء؛ لأن الملوك برفضهم الإسلام بمبادرة فردية منهم دون مشاورة شعوبهم، فإنهم يصادرون آراءهم ومن ثم يحرمونهم حرية الاختيار للعقيدة التي يرتضونها.

ب- فإن قبلوا الإسلام أو خلوا بين الناس وعقائدهم، يسلم من يسلم، ويكفر من يكفر، فهذا هو شأن العقلاء .

ج- فإن أحسنوا الرد وآثروا البقاء على دين آبائهم، كأغلب أهل مصر (في البداية) ومقوقسهم مع دفع الجزية (أو الزكاة)، فليس ثمة مشكلة .

د- إنما المشكلة كما أسلفنا في رفض الإسلام ثم رفض الجزية، المعنى العملي للاعتراف بسيادة الدولة، فلا يعني ذلك سوى إعلان الحرب .

فلسفة الجزية في الإسلام

للجزية ثلاثة أبعاد:

أ- بعد سياسي :

- فالجزية رغم ضآلتها (وهي أقل بكثير مما يدفعه المسلم في الزكاة، من ٣-٥ دنانير كل عام حسب القدرة كما عاهد عمر أهل إيلياء) هي الرمز العملي للاعتراف بدولة الإسلام، فإن الإسلام لم يأت إلى الدنيا

ليبقى الكفر ويسود، فيعيش المسلمون في ظله عيشة الضيق، بل جاء ليحكم ويسود ويصبغ الكون بلون الخضوع لله وحده، وليدين كل من يعيش في كنفه مسلمهم وكافرهم جميعا بالولاء له .

ب- بعد عسكري :

- نظير الدفاع عنهم وحمايتهم.

- وقد مر بنا في تاريخ الفتوحات أن الروم كانوا يغيرون على مستعمراتهم السابقة في الشام أملا في استعادتها من المسلمين..

- وأن أبا عبيدة رد الجزية إلى أهلها في أحد الأعوام (١٤ هـ)؛ لاعتقاده أنه لم يقدر على حمايتهم بالقدر الكافي، مع أنه لم يأل جهدا في هذا الشأن .

ج- بعد اجتماعي :

- لأن شيوخهم وضعفاءهم يستمتعون مثل سائر المسلمين بمظلة الضمان الاجتماعي.

- وقد مرت بنا قصة الشيخ اليهودي الذي كان يسأل الناس، وكيف وضع عمر الجزية عنه وعن أمثاله، بل وجعل له وأمثاله راتبا من بيت مال المسلمين.